ومع ذلك فقد عاودته صحوة نشاط عند العصر قبل موعد إقفال الأبواب بقليل. وشمخ رأسه عالياً وبلغ صوته الأسماع. أم أنه كان صوت «التَّوْأم»؟

ـ عندما تُغمض عينيك للمرة الأخيرة فإنهما لن تلبثا أن تنفتحا من غير أن تكون قد قصدت. وستكون لحظتك الأولى مصنوعة من عدم التصديق. مهما يكن إيمانك. فالشكّ موجود حتى لدى أرسخ المؤمنين إيماناً؛ وفي أشدّ أنواع عدم الإيمان صفاقةً يسكن الأمل الذي لم يُبَح به. وبإزاء «عالم الغيب» فإنّ الناس لا يقومون بغير أداء أدوار، وإيمانهم المشترك مكتوب في تعب أجسادهم.

وتوقّع الحاضرون أن يستعيد أنفاسه بصعوبة، ومع ذلك فقد تابع:

ـ ثم يأتي دور التجربة.

وإذ همس أحدهم حول «ماني» بكلمة «حساب» فإنه أجفل وكأنه أُهين.

ـ أيّ «حساب»؟ عندما تُغمض عينيك فإنّ الحكم يكون قد لُفظ به! بشفتيك بالذات.

كان وجهه بأسره قد استعاد حيويته. وراحتاه وأصابعه وحنجرته وجذعه.

ـ وما إن تنقضي لحظة عدم التصديق حتى يستعيد كل أحدٍ عيوبه وعاداته. وتبدأ الغربلة بين بني البشر. من غير ما حاجة إلى محكمة. فمن عاش بالهيمنة اشتكى من أنّه لم يعُدْ يُطاع؛ ومن عاش بالمظهر فَقَد كل مظهر؛ ومن عاش لأجل الامتلاك غدا لا يملك شيئاً، ويدُه تُطْبِق على العَدَم. وما كان له فهو من الآن فصاعداً لغيره. وسوف يغشى على الدوام، شأن الكلب المربوط بسلسلته، أمكنة إقامته الدنيوية، مقيَّداً، متسوِّلاً مجهولاً في المكان الذي كان فيه سيّداً.

«وحدائق النور تخصّ من عاشوا مُتحرِّرين من القيود».

صمت وغمضت عيناه. ثم عادت شفتاه تتحرّكان في وجه مُشرق، وكأنّ عظته كانت تتتابع له هو نفسه. وكان جزءٌ غيرُ متماسك من عبارة يُفلت منه من حين إلى آخر.

«... لن تجرح الشمس عينيك بعدُ... أنت يا من يعرف التأمّل في سعادة